
خانية مغول القفجاق على عهد توقتاميش

(780-808 هـ/1378-1406م)

م.د. رعد عبد الكريم أحمد النجار*

تأريخ القبول: 2012/3/5

تأريخ التقديم: 2012/2/2

المقدمة

تناولت هذه الدراسة تأريخ دولة مغول القفجاق على عهد الخان توقتاميش الذي يعد آخر الخانات الكبار في سلسلتها، وتبرز أهمية دوره في هذه الخانية في انه استطاع ان يعيد وحدة هذه الخانية بعد أن كانت قد تعرضت الى التقسيم والتجزئة فخلال السبعة عشر سنة (762-779 هـ/1361-1378م) السابقة لتوليه منصب الخانية حكمها خمسة وعشرون خاناً بعضهم لم يحكم سوى اياماً عاشت خلالها البلاد في فوضى سياسية عارمة بسبب الصراع على السلطة فاستغل الولاة والقادة بما تحت أيديهم وتمزقت أحوال البلاد حتى انقذها توقتاميش باعادة توحيد البلاد وأرجع للدولة هيبتها وفرض ارادتها على الجميع بما فيها الامارات الروسية التي كانت قد استغلت حالة الفوضى في البلاد بان اقتطعت أجزاءً منها إلى أن استرجعها توقتاميش وفرض ارادته على هذه الامارات التي اضطرت القبول بتبعيتها له وما ترتب على ذلك من دفع ضرائب مقررة على سكانها لمصلحتها.

ولكن ما حققه توقتاميش من نجاح اهدره في سلسلة من الحروب غير المحسوبة مع تيمورلنك الساعي لاعادة تكوين امبراطورية على غرار امبراطورية جنكيز خان الذي لم يعطِ الفرصة لتوقتاميش في ان يكون منافساً له على املاك المغول الايلخانيين ولاسيما في اقليم اذربيجان فعد تيمور نفسه وارثاً لها فكان ذلك سبباً لحروب وتحالفات سياسية قادت الى حملات متبادلة كل على بلد الاخر، انتهت بالحملة التيمورية المدمرة على بلاد القفجاق سنة(797هـ/1394م) والتي

* قسم التأريخ/ كلية الآداب/ جامعة الموصل.

غيرت بشكل جذري معالم هذه الدولة السياسية وزعزت كيائها بحيث لم تعد قادرة من جديد على النهوض فانقسمت الى عدة خانايات تنازع بعضها بعضاً على مناطق النفوذ حتى ابتلعتها الدولة الروسية الحديثة. وقد عالجت هذه الدراسة أحداث هذه الدولة وفق العناوين الآتية:

أولاً: الفوضى السياسية في خانية مغول القفجاق والتجاء توقتاميش عند

تيمورلنك

قبل الخوض في تفاصيل الفوضى السياسية لهذه الدولة لابد من اعطاء لمحة سريعة عنها فقد شغلت في أقصى اتساع لها في الأراضي الممتدة من نهر ارتيش شرقاً الى بحيرة الاكول امتداداً الى نهر ايلي مضافاً اليها بلاد خوارزم وبلاد القوقاز جنوباً وسهوب القفجاق شمال بحر قزوين حتى الحوض الأسفل لنهر الدينير⁽¹⁾ من طرفها الغربي والجنوب الغربي⁽²⁾ غير ان هذه الحدود لا تعني انها كانت مستقرة فهي قابلة للتقلص والإمتداد بحسب قوة وضعف الدولة والقوى المحيطة بها.

ويطلق على هذه الدولة تسميات عديدة فترد باسم دولة جوجي نسبة الى جوجي الذي كان والده جنكيز خان قد منحه حكم هذه البلاد

(1) عن هذه المواقع ينظر الخارطة الملحقة بالبحث. قسم 1.

(2) الجويني، عطا ملك: تأريخ فاتح العالم جهانكشاي، نقله عن الفارسية محمد التونجي، دار الملاح للطباعة والنشر 1985م، ص 73. القلقشندي، ابو العباس أحمد بن علي: صبح الاعشى في صناعة الانشاء، دار الكتب العلمية بيروت، 1987م، ج4، ص 312-313. ابن تغري بردي، جمال الدين ابو المحاسن يوسف: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق أحمد يوسف نجاتي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة 1956م، ج4، ص 78. العريني: السيد الباز: المغول، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت 1967م، ص 157. حسين، جاسم مهاوي: تأريخ الغزو التيموري للعراق والشام، رسالة ماجستير غير منشورة، مقدمة الى مجلس كلية الاداب، جامعة بغداد 1975م، ص 210.

سنة (624هـ/1226م) فعرفت بدولة مغول جوجي⁽¹⁾ وتعرف أيضاً بدولة باتو بن جوجي الذي على عهده (624 - 653هـ/122 - 1255م) حدثت التوسعات لهذه الدولة وتشكلت معالمها، كما ترد باسم دولة القبيلة الذهبية كون رأس الخيمة لخيامة قبائل المغول كان لونه ذهبياً فعرفت به بيد أن التسمية الأكثر شيوعاً هي دولة مغول القفجاق نسبة إلى بلاد القفجاق التي كانت تستوطنها قبائل تعرف باسم القفجاق الذين خضعوا لسيطرة المغول وأسسوا على أرضهم دولتهم التي بقيت موحدة من عهد جوجي بن جنكيزخان حتى مطلع العقد السادس من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي لتنتشر بوفاة الخان بردي بك سنة (762هـ/136م) إلى قسمين هما الأردو الذهبي⁽²⁾ "التين أوردا" والأردو الأبيض "اق أوردا"، وشغل الأردو الأبيض منطقة حوض سيحون الأسفل ومعه مدن الضفتين اليسرى واليمنى للنهر ابتداء من صوران إلى ينعيكنت مضافاً إلى ذلك السهوب الممتدة شمالاً من سيحون وبحر أورال حتى تومين وليكون نهر أورال هو الحد الفاصل من الأردو الذهبي من طرف الغرب، ونهر ارتيش الحد الشرقي لهذا القطاع وتعد مدينة بلغار⁽³⁾ مركزاً له أما الأوردو الذهبي فيشمل الأراضي الممتدة من نهر أورال شرقاً حتى الحوض الأسفل لنهر الدنيبر ومركز هذا القطاع مدينة السراي⁽³⁾.

وكان لكل قسم خاناته المعروف بها، وبالنسبة للأردو الذهبي فقد كانت الاعوام بين (762 - 779هـ/136 - 1378م) عسيرة على هذا القسم إذ اعتلى العرش خمسة وعشرون خاناً⁽³⁾، وكان قسم من هؤلاء الخانات قدموا من الأردو

(1) الرمزي م م: تليفق الأخبار وتلقيح الاثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار، المطبعة الكريمة والحسينية، أورنبورغ، م 1، ص 204 - 205، 333، 363.

(2) عن موقع الأردو الذهبي والأردو الأبيض ينظر للخارطة قسم 1.

(3) بلغار تقع شمال شرقي مدينة سراي على بعد عشرة مراحل منها. ابن بطوطة أبو عبد الله محمد اللواتي: رحلة ابن بطوطة، دار التراث، بيروت، 1968، ص 325.

(3) يكوفوسكي، أ. يو: تيمورلنك (وصف موجز لسيرة حياته)، مجلة دراسات والعلوم الانسانية والتاريخ، الجامعة الأردنية، عمادة البحث العلمي، عمان، م 15، ع 7، 1988م، ص 120 والهامش (78) من نفس الصفحة. حسين: تأريخ الغزو التيموري للعراق، هامش (153)، ص 210.

(3) الرمزي، تليفق الأخبار، م 1، ص 556. يكوفوسكي: تيمورلنك، ص 120.

الابيض ليشغلوا عرش الاردو الذهبي في العاصمة سراي وحكم بعضهم لاشهر قليلة ويكفي أن نشير الى اسماء عدد منهم كالخان خضر اوغلان ومديد وتيمر خواجه وكلي بيك الذي توفي سنة (763هـ/1362م)⁽¹⁾، وتتصف هذه المرحلة من حياة الاردو الذهبي بالفوضى العارمة التي عمت فيها الاضطرابات وشعلت كل جزء منها واستقل الولاة والقادة بما في ايديهم وتمزقت الدولة وانتشرت الأمراض والأوبئة لاسيما مرض الطاعون الذي فتك بعشرات الاف من السكان والذي كان يعاود ظهوره كل بضع سنوات⁽²⁾، ولم يكن للخان من سلطة تتجاوز حدود العاصمة سراي.

هذه الاوضاع صاحبها تغيرات في الحالة السياسية والاقتصادية للقوى المحيطة بخانية الاردو الذهبي فساهمت سلباً على هذه الخانية. فكانت هذه الخانية في زمن قوتها ووحدتها فارضة إرادتها على الإمارات الروسية (موسكو ولتوانيا وملدافيا ونوفغورد) التي سنشير إليها لاحقاً حيث كان امرؤها يتسابقون الى العاصمة سراي لاعلان الطاعة ودفع الاتاوات او الضرائب السنوية المقررة عليهم وكان من يتخلف عن دفعها تدك جيوش الخان امارته، وقلما حدث ان ارتد أمير روسي على سلطة الخان ولم يتلق العقاب. وفي المقابل كانت تجارة طريق الحرير القادم من الصين تمر عبر الطرق الامنة لهذه الخانية الى أوروبا وكان يدر ارباحاً طائلة لخاناتها وعرفت مدينة تانا الواقعة على مصب نهر الدون على بحر آزوف بنشاط للتجار الاوربيين والبلدان الاخرى.

هذه المنافع تراجعت بشكل كبير خلال هذه الفترة فقد استغل امير موسكو ديمتري الرابع (763-791هـ/1362-1389م) الاضطرابات التي عصفت بالخانية، وتوقف عن تسديد الضرائب المفروضة على امارته كما اقدم على

(1) الرمزي، تليفيق الأخبار، م1، ص 559-561، 568.

(2) شبولر، برتولد: العالم الاسلامي في العصر المغولي، ترجمة خالد أسعد عيسى، منشورات دار حسان للطباعة والنشر 1982م، ص 152. شبولر: المغول في التاريخ، ترجمة عن الفرنسية يوسف شلب شام، دار طلاس للترجمة والنشر، دمشق 1989م، ص 119.

احتلال بلغار وقازان في وسط الفولغا وحرّم المغول من مصادر دخلها⁽¹⁾ كما نجح المولدافيون في كسر شوكة المغول في الدانوب الاسفل وفي بسارابيا، وحقق الليتوانيون في سنة (763هـ/1362م) نصراً مهماً على اتحاد محلي لامراء من المغول على ضفاف المياه الزرق (ويسمى الان بنهر سينيوخا) وكان من نتائج هذا النصر ان ضم الليتوانيون اجزاء واسعة من اوكرانيا امتداداً حتى حدود المجر "هنغاريا" وطردها من هذه المناطق الباسكاك أي جباة الضرائب من قبل المغول وفي سنة (771هـ/1370م) احتل الليتوانيون مدينة كييف وحولوها الى قاعدة لشن الغارات على مناطق نفوذ المغول⁽²⁾.

كما اضطرت التجارة ونشبت الحروب بين الجنوبيين والبنادقة للاستحواذ على مدينة تانا التجارية وهدد العثمانيون بسيطرتهم على مضيق الدردنيل في سنة (758هـ/1357م) بإعاقه انسيابية التجارة بين البحر الاسود والبحر المتوسط⁽³⁾ ولما كانت سمة الخانية الفوضى والاضطراب غدت العاصمة سراي محط اطماع كل امير يجد في نفسه القدرة السيطرة عليها فلا يتردد فسبب ذلك خوفاً شديداً للسكان لكثرة ما كانت تتعرض له هذه الخانات من تغيرات وما كان يسبب ذلك من عمليات انتقام متبادلة بين الخانات انفسهم ولاسيما بين من استطاع ان يستعيد عرشه للمرة الثانية واحياناً للثالثة.

ويسبب هذا الخوف هجر الكثير مناطق نفوذهم وسكناهم والتحقوا بحاكم القرم ماماي. وماماي استغل التحاق بنت بردي بك خان به بعد وفاة والدها⁽⁴⁾ سنة (759هـ/1358م) وكانت هي حاملة للخرقة الذهبية (الشارة الملكية) التي كان كل من يصل لمنصب الخان لابد له ان يتقلدها وجنكيزخان كان قد منحها لباتو ومنها أخذت تنتقل من خان الى اخر وعدّ من يحملها خان شرعي، فاستثمر ماماي وجود

(1) الرمزي: تليفق الأخبار، م 1، ص 556، 560.

(2) شبولر: المغول في التأريخ، ص 120 - 121.

(3) فريد بك، محمد: تأريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق احسان حقي، دار النفائس، بيروت، 1981م، ص 126 - 127.

(4) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي: تأريخ ابن خلدون، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت 1971م، ج 5، ص 538.

هذه الحركة معه بان استحوذ على سراي ونصب عليها ابن اوزبك خان اسمه عبد الله ليكون خانا سوريا وليحكم الخانية باسمه⁽¹⁾ ولكن مقامه لم يطل اذ توالى على حكمها بعد طرد مامي الى القرم كل من حامي شركس وأوروس خان "ارض خان" ثم حامي شركس للمرة الثانية وايبك خان ثم قاوينخان ثم اوروس خان للمرة الثانية وكان هذا في حدود سنة (776هـ/1375م)⁽²⁾.

وخلال هذه الفوضى السياسية عقد أوروس خان الاردو الابيض اجتماعا عاما "قوريلتاي" حضره مندوبون لعدد من الامارات المحلية وحكام مدن مستقلين وعرض عليهم فكرة توحيد الدولة تحت زعامته ولاسيما وان الاخطار أصبحت محدقة بالجميع، ونالت الفكرة القبول باستثناء معارضة ابن عمه طوي خواجه اوغلان حاكم منغشلاق⁽³⁾ الذي كان يعتقد بانه الاحق في ان يكون هو الخان بوصفه انه ابن للخان بردي بك المتوفي سنة (759هـ/1358م)⁽⁴⁾ ولكون اوروس عد مطلبه هذا تهديداً له فأمر بقتله، فهرب ابنه المدعو توقتاميش من الاردو الابيض الى بلاط تيمورلنك حاكم بلاد ما وراء النهر عارضاً عليه خدماته وذلك سنة (777هـ/1376م)⁽⁵⁾.

وكان تيمورلنك مطلعاً على الأحداث التي كانت تجري في بلاد الاردو الابيض ومدركاً ان تحقيق اوروس لوحدة بلاده سيشكل مصدر خطر على بلاد ما

(1) الرمزي: تليفق الأخبار، م 1، ص 559-560. شاكر، محمود: التاريخ الاسلامي،

منشورات المكتبة الاسلامية، 2000م، ج 7، ص 151.

(2) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج 5، ص 538-539 ويسمى اوروس بأرض خان.

الرمزي: تليفق الأخبار، م 1، ص 558.

(3) يكوبوفسكي: تيمورلنك، ص 121. و منغشلاق قلعة حصينة في آخر حدود خوارزم.

ياقوت الحموي: معجم البلدان، م 5 ص 215. وينظر الموقع على الخارطة قسم 2.

(4) ابن خلدون، عبد الرحمن: التعريف بابن خلدون في رحلته غرباً وشرقاً، منشورات لجنة

التأليف والترجمة والنشر، ص 363.

(5) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج 5، ص 538. فاميري، ارمينيوس: تاريخ بخارى، ترجمة

أحمد محمود الساداتي، منشورات المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، ص

222، يكوبوفسكي: تيمورلنك، ص 121.

وراء النهر وسيعيق تحقيق طموحاته في أن يكون وريثاً لأملاك جنكيزخان، ولهذا السبب رأى ان من مصلحته احتضان توقيتاميش عدو أروس إذ من الممكن الاستفادة منه منافساً لغريمه، فأكرم وفادته وأعدق عليه الهدايا، وعرض عليه دعماً عسكرياً لينتزع العرش من اوروس خان⁽¹⁾.

ولتحقيق هذا الهدف بدأ تيمور بخطوات ابتدأها أولاً بمنح توقيتاميش حكم قلعتي اترار وسنغاق الواقعتين على الحدود الشمالية لبلاده مع القبجاق وكان قد انتزعها من مغول الارذو الابيض ليراقب من خلالها الاحداث في بلاده عن كثب، وما أن اعتقد الفرصة أصبحت مؤاتية بانشغال اوروس بتثبيت اركان حكمه في سراي حتى دخل بجيشه قد امده به تيمورلنك باتجاه بلاد القفجاق ولكن اوروس دفع بابنه قتلغ بوقا فاعترض طريق توقيتاميش وتمكن منه فلاذا بالفرار ملتجأ ثانية عند تيمور، اما قتلغ بوقا فكان قد أصيب بجرح في المعركة ما لبث بعد أن توفي⁽²⁾، فسببت وفاته حزناً شديداً لاوروس الذي طالب تيمور بتسليمه توقيتاميش، فرفض ذلك وأمد ثانية توقيتاميش بجيش ليعاود الدخول به الى بلاده ومحاربة اوروس وفي المقابلة عند صوران⁽⁴⁾ مع جيش اوروس الذي كان بقيادة ابنه توقيتاتايا مني توقيتاميش بهزيمة للمرة الثانية فاراً من ارض المعركة ليلتجأ من جديد لتيمورلنك وهو جريح وممزق الثياب⁽³⁾ وكان فشله هذا دافعاً لتيمورلنك كي يأخذ المبادرة بنفسه للقضاء على اوروس.

ثانياً: اعتلاء توقيتاميش عرش خانية الارذو الابيض وتوحيد خانية

مغول القفجاق تحت حكمه

-
- (1) الرمزي: تليفق الأخبار، م 1، ص 569-570.
- (2) ابن خلدون: تأريخ ابن خلدون، ج 5، ص 539. الرمزي: تليفق الأخبار، م 1، ص 569.
- (4) صوران مدينة تقع على نهر سيجون عند مصبها على بحر خوارزم ينظر الموقع على الخارطة. قسم 1.

- (3) الرمزي: تليفق الأخبار، م 1، ص 570-572. فامبري: تأريخ بخارى، ص 223.

خرج تيمور بجيشه ومعه توقتاميش في ربيع سنة (778هـ/1377م) لمواجهة خصمه اوروس، الذي كان هو الآخر قد قاد جيشه من سراي ومعه ابنه توقتاتايا لمواجهة تيمور فعسكر عند قلعة سغناق في حين عسكر تيمورلنك عند قلعة أترار وبينهما مسافة سبعة وعشرين فرسخاً⁽¹⁾ على أن البرد الشديد وتساقط الثلوج الكثيفة منع لقاء الجيشين حتى اضطرراً للاقامة هناك اشهرًا متواجهين من دون ان يستطيعا القيام بأيّة حركة، وما أن اعتدل المناخ حتى ارسل تيمورلنك كتيبة من فرسانه مؤلفة من خمسمائة فارس للاستطلاع فصادف ان التقت بقوة من ثلاثة الاف فارس بقيادة تيمور ملك بن اوروس فباغتها واصيب تيمورلنك بجرح اضطره للانسحاب، فما كان من اوروس الا أن قرر الانسحاب وفي الطريق وافته المنية، وما لبث بعد وقت قصير ان توفي ابنه توقتاتايا ليتولى أمر الخانية ابنه الاخر تيمور ملك⁽²⁾.

أما عن موقف تيمورلنك فإنه اثر الانسحاب هو الاخر بسبب طول مدة غيابه ولتقلب المناخ تاركاً لتوقتاميش مهمة الاستيلاء على المناطق التي انسحب منها جيش اوروس ناشراً فيها الخراب والدمار ومراقباً التطورات التي أعقبت وفاة اوروس في العاصمة سراي. وادراكاً منه أن تولي تيمورملك لأمر الخانية يعطيه الفرصة في مباغتته ولاسيما ان هذا الخان لم يتخذ الاجراءات الكفيلة في مواجهة احتمال تعرضه لغزو من قبل تيمورلنك او توقتاميش وانما كان منصرفاً الى اللهو والعبث، فكان ذلك سبباً لنهاية حكمه لسراي اذ باغته توقتاميش واستولى على العاصمة سراي معيداً ملك اجداده اليه⁽³⁾، فكان ذلك فاتحة أحداث وتطورات جديدة

(1) الفرسخ = 6 كيلومتر. فالترهنتس: المكايل والاوزان الإسلامية، ترجمها كامل العسلي، عمان، 1970، ص 94.

(2) ابن خلدون: تأريخ ابن خلدون، ج 5، ص 539. الرمزي: تليق الأخبار، م 1، ص 572-574.

(3) ابن خلدون: تأريخ ابن خلدون، ج 5، ص 539. الرمزي: تليق الأخبار، م 1، ص 574-575. فاميري: تأريخ بخارى، ص 223. شبولر: المغول في التاريخ، ص 122.

غيرت في مسار الاحداث لتتقلب محاولات التحالف وليتحول التابع والحليف الى
عدو ليطمورلنك.

وبخصوص توقيتاميش فإن طموحه لم يتوقف عند حدود سراي بل أراد أن
يوحد من جديد شطري خانية مغول القفجاق مبتدأ بأملاك اوروس في خانية الاردو
الابيض ولم تكن هذه مهمة سهلة له، ولاسيما ان تيمور ملك كان قد التجأ اليها
بعد هزيمته من سراي، ومع محاولات توقيتاميش المتكررة في الاستحواذ عليها، إلا
أنه لم يفلح بها إلا في سنة (780هـ/1378م) عندما التقيا في موضع يقال له قرتال
شمال غربي خوارزم وفي الصولة الاولى من القتال قتل تيمور ملك وبمقتله أصبح
الطريق سالكاً لتوقيتاميش الذي لم يجد صعوبة كبيرة في اجتياز جبال خوارزم
ليستحوذ على كل أملاك اوروس وليضم الاردو الأبيض لنفوذه⁽¹⁾

. ولم يبق امام توقيتاميش من اعداء محليين سوى ماماي الذي كان قد
استبد في إمارته في شبه جزيرة القرم متخذاً من مدينة القرم مركزاً لحكمه⁽²⁾. وكان
ماماي هو الاخر طامحاً في توحيد خانية مغول القفجاق تحت نفوذه على الرغم
من فشله في الاحتفاظ بالعاصمة سراي والتي سبقت الاشارة اليها، ولكن بدلاً من
معاودة استهدافها فضل القيام بالتوسع واسترجاع املاك المغول في المناطق التي
كانت الامارات الروسية قد استحوذت عليها، أملاً منه في فرض ارادته على تلك
الامارات وليعيد فرض ضرائبه عليها وليسخر تلك الاموال في اعداد جيش قوي
لتحقيق طموحه التوسعي لصرفها على جيشه من اجل تقويته ليستخدمه في تحقيق
طموحاته.

ومع أنه قام بأربع حملات كبرى على الإمارات الروسية كانت الاولى
والثانية ناجحة بتدمير الاستحكامات وإحداث التخريب في المدن التي مر بها
استعداداً لحملة اكبر (سنذكرها لاحقاً) ومع ان الروس قد تلقوا ضربات موجعة من

(1) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج5، ص 539. الرمزي: تليق الأخبار، م1، ص 575-

576. فامبري: تاريخ بخارى، ص 223. وقرتال تقع شمال غرب بحر خوارزم. ينظر

للخارطة قسم 1.

(2) الرمزي: تليق الأخبار، م1، ص 558.

هاتين الحملتين وان مدينة نوفغورود قد احرقت وهرب سكانها وخرّبوا مدينة سوزدل وعانت مدينة ريزان ومدن أخرى (الامر ذاته) وذلك سنة (1377/779م)⁽¹⁾.
ويبدو أن الروس تعلموا الدرس وادركوا أن لاختيار امامهم سوى أن يقاتلوا عدوهم وان يتركوا خلافاتهم جانباً، ولهذا كان لابد لهم ان يتصدوا اولاً للقوى التي كانت متعاونة مع ماماي ممثلة بإمارة موردو ذات الاصول الملدافية وانزلوا بسكانها ومدنها أبشع اساليب القتل والتخريب فأثار ذلك غضب ماماي ليوجه جيشه بقيادة الميرزا بيكيح نحو موسكو فخرج له امير موسكو ديمتري الرابع ليلتقي به عند برية ريزان وفيها تمكن ديمتري من الحاق الهزيمة بجيش الميرزا في أعالي نهر ووزا وذلك سنة (780هـ/1378م)⁽²⁾ فكان ذلك أول انتصار للروس على المغول منذ مائة واربعين سنة ومقدمة لانتصار آخر.

لم ينسَ ماماي ما حل بعسكره على يد الروس وما أن اكمل استعدادته حتى توجه بنفسه غازي بلاد الروس وطالباً للثأر، ولكن في المقابل كان الروس على درجة من الاستعداد حتى ان اميرهم ديمتري الرابع ودع شعبه بلباس الموت ليقود عشرات الاف من الجند والفرسان وعند نهر الدون وقعت المعركة الحاسمة والتي ابدى الروس شجاعة فاقت التوقعات وكان النصر حليفهم بهزيمة قاسية لماماي الذي فقد معظم عسكره بين قتيل وجريح واسير وهارب بما تبقى له الى القرم وكان ذلك في 6 جمادي الاخر سنة (782هـ/7 أيلول 1380م)⁽³⁾.

استغل توقتاميش حالة الضعف التي كان عليها ماماي فدعاه اولاً الى الطاعة والبيعة له فأبى فما كان من توقتاميش إلا ان سير عسكره اليه فالتقى الفريقان عند نهر كالكا ويسمى الان فالتيسكي فانكسر عسكر ماماي وانسحب الى

(1) الرمزي: تلفيق الأخبار، م، 1، ص 561-562. Vernadisky: GiAhistory of Russia, The Mongols and Russia, New Haven, yale University, 1959, vol, 111, p. 257- 260. وعن مواقع نوفغورود وسوزدل و ريزان وهم من مدن الامارات الروسية عنهم ينظر الخارطة قسم رقم 3.

(2) الرمزي: تلفيق الأخبار، م، 1، ص 562.

(3) الرمزي: تلفيق الأخبار، م، 1، ص 562-566.

مدينة كافكا ولكن الجنوبيين الذين كانوا مسيطرين على هذه المدينة غدروا به وقتلوه وذلك سنة (782هـ/1381م)

وبمقتل ماماي يكون توقيتاميش قد وحد البلاد تحت نفوذه⁽¹⁾ وأخذت تطلعاته تتوجه نحو استعادة نفوذ مملكته على الإمارات الروسية كما كان من قبل.

ثالثاً: توقيتاميش وحرقت موسكو

قيل قديماً الحرب تولد حرباً هذا الشاعر أخذ به توقيتاميش طيلة حياته السياسية فهو لم يستكن لساكن وانما أراد أن تكون لدولته عظمة إمبراطورية فما أن شعر أن مقامه استقام بوحدة بلاده حتى كان هدفه التالي هو الثأر من الإمارات الروسية التي لم ينس ما فعلته في وسط الفولغا وتوسعاتها على حساب دولته ولهذا لم يكتف بارسال امراء الروس الهدايا اليه للتهنئة باعترائه العرش، وانما كان ينتظر من أمرائهم لاسيما ديمتري الرابع أمير امارة موسكو الحضور شخصياً الى سراي ليس فقط للتهنئة وانما اعلانا للتبعية، وقد فهم ديمتري الرسالة من سفراء توقيتاميش اليه، ولكن نشوة انتصاره السابق دفعته الى رفض الطلب، فكان ذلك ايذاناً له للنهوض لتأديب ديمتري والامراء الروس الاخرين⁽²⁾.

فقد توقيتاميش جيشاً جراراً في أوائل سنة (783هـ/1381م) باتجاه الإمارات الروسية التي ما ان علمت بضخامة جيشه حتى أخذ امراؤها يتسابقون بتقديم الهدايا له والاعتراف بتبعتهم له ومنهم الامير اوليغ حاكم مدينة ريزان والامير ديمتري حاكم مدينة نيشني نوفغورود، أما ديمتري الرابع فانه ترك موسكو الى مدينة مستروما واناط مهمة الدفاع عنها الى الامير اوشي بن الكيرد الذي استطاع ان يصمد امام الحصار الذي اقامه توقيتاميش على اسوار المدينة ابتداءً من (12 جمادى الاخر/23 اب) ولشدة المقاومة لجأ توقيتاميش الى اسلوب الحيلة

(1) ابن خلدون: تأريخ ابن خلدون، ج5، ص 539.

(2) الرمزي: تليق الأخبار، م1، ص 577.

في فتح المدينة عندما وجه نداء لسكانها تعهد فيه أن لا يلحق الضرر بهم وسيعاملهم كرعايا وأن مشكلته ليست معهم وإنما مع ديمتري الرابع⁽¹⁾. وبعد مداوات استجاب سكان المدينة لنصيحة حاكم مدينة نبشني نوفغورود بضرورة تجنب مدينتهم ما سيلحق بها من تدمير في حال رفضهم طلبه وحلف لهم بأنه سيحافظ على وعده حيث كان له ابنان يرافقه عند ذلك فتحا أبواب المدينة لتتفتح عليهم ابواب جهنم لعدم ايفاء توقيتاميش بعهده⁽²⁾ فأمر بتدمير المدينة بعد نهبها ولقي أكثر من (24) ألفاً من سكانها حتفهم مع الاف من الاسرى، ثم عاد توقيتاميش بعد ان تركها خراب الى سراي، ليرسل بعد حين ديمتري الرابع ابنه فاسيلي مع عدد من امرائه مع هدية ثمينة معلناً لتوقيتاميش الخضوع واعلان التبعية وبذلك اعادة خانية توقيتاميش نفوذها من جديد على هذه الامارات⁽³⁾.

رابعا: توقيتاميش وسياسة التحالف والمواجهة مع تيمورلنك

كان قبول تيمورلنك بوفادة توقيتاميش وتمكينه من استعادة ملك اجداده في دولة مغول القفجاق انبنى على ما كان قد رسمه تيمورلنك لنفسه من ان توقيتاميش سيصبح تابعه المخلص والمنفذ لسياسته في دولة مغول القفجاق، غير ان توقيتاميش لم يحقق الامال التي عقدها عليه تيمورلنك لا بل انقلب عليه لتعدو الحرب امرأ لا مفر من وقوعه بينهما.

فقد ارتكب توقيتاميش ما كان يجب ان لا يحدث، ولا يمكن قبوله من قبل تيمورلنك، ذلك انه في محاولته لاعادة مجد دولته كما كان على ايام الخانات العظام بدأ توقيتاميش سلسلة من الحملات العسكرية بهدف توسيع املاك دولته

(1) الرمزي: تلفيق الأخبار، م1، ص 577-578. Vernadisky: op. cit, vol, 111, p. 266

(2) الرمزي: تلفيق الأخبار، م1، ص 578-579. Vernadisky: op. cit, vol, 111, p. 266

(3) الرمزي: تلفيق الأخبار، م1، ص 579. فاميري: تأريخ بخارى، ص 223. شاكر: التأريخ الاسلامي، ص 151

Glubb, Sir John: The Lost centuries, 1145 - 1453, London, Hodder, 1967, p. 434. Vernadisky: op. cit, vol, 111, p. 267- 268.

مبتدأً بحملته على أذربيجان التي كان يعتبرها تيمورلنك خطأً أحمرًا لأنها تقع ضمن مخططه الذي كان يسعى إليه وهو استعادة كامل املاك الدولة الإيلخانية في إيران وبلاد القوقاز معتبراً نفسه وريثاً لها من أسرة هولاكو⁽¹⁾.

فقد قاد توقتاميش جيشاً كثيفاً تحرك به نحو أذربيجان عبر الدربند⁽²⁾ وتمكن من الاستيلاء على تبريز التي كانت تحت سلطة الدولة الجلائرية على عهد السلطان أحمد الجلائري (784- 813هـ/1382- 1410م) فهرب حاكمها الامير ولي ونهب توقتاميش المدينة وقتل عدداً كبيراً من سكانها وعاد الى بلاده وذلك سنة (787هـ/1385م)⁽³⁾.

ويبدو ان هجوم توقتاميش على تبريز لم تكن غايته مسك الارض في هذا التوقيت وإنما كان بالون اختبار لمعرفة رد فعل تيمور الذي كانت قواته قد وصلت في العام نفسه السلطانية لاكتشاف امكانية عقد تحالف مع دولة المماليك في مصر ليتقوى بهم في تحقيق احلامه التوسعية المتعارضة مع رغبات تيمور ولمعرفة مواطن القوة والضعف في أذربيجان. وهذا ما حدث فعلاً اذ تشير المصادر المملوكية وصول وفدٍ من توقتاميش في (19 محرم سنة 787هـ/2 اذار 1385م) الى القاهرة مع هدية ثمينة تقدم بها للسلطان المملوكي برقوق⁽⁴⁾ عارضاً عليه رغبته بعقد تحالف عسكري معه ضد تيمورلنك، ومذكراً إياه بالروابط

(1) بروكلمان، كارل: تأريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت 1977م، ص 421.

(2) دربند و تسمى ايضاً باب الأبواب وهي مدينة من بلاد القفقاز تقع على بحر قزوين. القزويني، زكريا بن محمد: اثار البلاد و اخبار العباد، دار صادر، بيروت 1960 م ص506-507.

(3) الرمزي: تليق الأخبار، م1، ص 584- 585. اقبال، عباس: تأريخ ايران بعد الاسلام، ترجمة عن الفارسية محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة، القاهرة 1989م، ص 598.

(4) حافظ أبرو، شهاب الدين عبد الله بن لطف الله الخوافي: زبدة التواريخ، بسعي واهتمام فيلكس تارو، براغ، 1956م، ص 54: AL- yazdi, Sherefedden Ali .ZeferNama, trans, to English by Darby, vol, 1, p. 257

التأريخية معهم⁽¹⁾ وانه قد أعد خمسين الف فارس قرب الدربند في القوقاز للانقضاض على القوات التيمورية المتواجدة في اذربيجان⁽²⁾، وقد لقي هذا العرض القبول لدى برقوق وما يؤيد ذلك نشر المماليك لعدد من الجواسيس في بلاد ايران لمراقبة تحركات الجيش التيموري⁽³⁾.

وبهدف تعزيز هذا التحالف انضم اليهم السلطان أحمد الجلائري⁽⁴⁾ الذي كان تيمورلنك قد استولى على معظم املاكه في غرب ايران وأصبحت املاكه في العراق الهدف القادم.

ويبدو ان خطة التحالف كانت تقضي بقيام توقتاميش بجر تيمورلنك الذي كان قد ترك حاميات له في المدن التي احتلها في اذربيجان وانسحب الى سمرقند⁽⁵⁾ بجره ثانية الى غربي ايران بقيام توقتاميش بغزو اذربيجان عند ذاك سيتحرك تيمورلنك الى هذا الاقليم فيجد القوات المملوكية والجلائرية وقوات توقتاميش في انتظاره وحينما يصل يكون توقتاميش قد حقق اهدافه في اذربيجان بضرب القوات التيمورية فيها قبل وصول تيمورلنك لها ثم يؤثر الانسحاب لتشاغل

(1) المقرئزي، تقي الدين أحمد بن علي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، منشورات مطبعة دار الكتب، 1971، ج3، ص 531. ابن حجر، أحمد بن علي: انباء الغمر بابناء العمر، تحقيق حسن حبشي، منشورات لجنة احياء التراث الاسلامي، القاهرة 1969م، ج1، ص 301. الصيرفي، علي بن داود بن الخطيب: نزهة النفوس والايوان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب المصرية، القاهرة 1970م، ج1، ص 115.

(2) بياني، شيرين: تأريخ ال جلاير، دانشكاه تهران، 1345هـ، ص 78. الرمزي، تفتيق الأخبار، م1، ص 584.

(3) ابن اياس، محمد بن أحمد الحنفي: بدائع الزهور في وقائع الدهور، منشورات المطبعة الامريكية الكبرى، بولاق، 1311هـ، ج1، ص 267.

(4) الرمزي: تفتيق الأخبار، م1، ص 584.

(5) ابن خلدون: تأريخ ابن خلدون، ج5، ص 539. السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن: الضوء اللامع لاهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ج3، ص 546. حافظ ابرو: زبدة التواريخ، ص 58. بياني: تأريخ ال جلاير، ص 77.

القوات المملوكية والمتحالفة معها تيمورلنك في حين يكون توقيتاميش قد استغل فرصة غياب تيمورلنك عن سمرقند بان يتوجه الى بلاد ما وراء النهر ليقض على نفوذ تيمورلنك فيها.

وبهدف تحقيق النجاح الكامل لهذه الخطة توصل توقيتاميش على تفاهم مع بعض القوى المؤثرة في بلاد ما وراء النهر فنجحت محاولاته مع قمر الدين خان كاشغر⁽¹⁾ ومغلستان⁽²⁾ الذي كانت بلاده قد عانت الويلات على يد تيمورلنك فتعهد لتوقيتاميش باسناده عسكرياً حينما يدخل بلاد ما وراء النهر⁽³⁾ كما تحالف مع حاكم خوارزم شاه صوفي الذي تعهد له بالتمرد على تيمورلنك ومساعدته في القضاء عليه⁽⁴⁾.

وهكذا اكتملت صيغة التحالف والذي بدأت بوادر تطبيقه بارسال توقيتاميش قواته المتواجدة في الدريند فهاجموا اران واذربيجان، فما كان من تيمورلنك الا وان زحف مسرعاً من سمرقند لوضع حد لغارات جيش توقيتاميش وبهذا الزحف يكون توقيتاميش قد جر تيمورلنك لما كان قد خطط له، و ما ان اقترب تيمورلنك من أذربيجان حتى انسحبت قوات توقيتاميش منها ليدخل تيمورلنك تبريز دون أية مقاومة وذلك في صيف سنة (788هـ/1386م)⁽⁵⁾.

وكان برقوق خلال ذلك يرصد تحركات تيمور معتمداً على المعلومات التي كان يرسلها جواسيسه الذين بثهم في المشرق⁽⁶⁾ وعلى المعلومات التي تصله من

(1) كاشغر مدنية تقع ف اقليم التركستان شرق الصين. ينظر على الخارطة قسم 2

(2) اقليم مغلستان و يسمى أيضا ارض المغول ويقع في الطرف الشمال الغربي من تركستان الغربية شمال منابع نهر سيحون. ينظر لخارطة القسم 2.

(3) الرمزي: تلفيق الأخبار، م 1، ص 589-590. اقبال: تاريخ ايران، ص 600.

(4) يكوبوفسكي: تيمورلنك، ص 123.

(5) حافظ ابرو: ذيل جامع التواريخ رشيدي، بسعي خانبايا بياني، منشورات، شركة تضامني علي، 1317هـ، ص 234. السخاوي: الضوء اللامع، ج3، ص 46. الشامي، نظام الدين: ظفرنامه، بسعي واهتمام فلکس تاور، براغ 1937م، ص 97-98.

.Vernadisky: op. cit, vol, 111, p. 270

(6) ابن اياس: بدائع الزهور، ج1، ص 267.

السلطان أحمد الجلثري الذي كان قد انسحب من اذربيجان الى بغداد⁽¹⁾ وكان حاكم ماردين مجد الدين عيسى الارتقي قد حذر برقوق من خطورة الوضع العسكري على الجبهة الشمالية لدولة المماليك والتخوف من اندفاع تيمور الى بلاد الشام⁽²⁾ لاسيما وانه كان قد استولى بالكامل على اذربيجان وذلك سنة (788هـ/1386م)⁽³⁾ وأن العراق من الممكن أن يكون هدفه التالي كما جاء ذلك بتحذير السلطان أحمد الجلثري⁽⁴⁾.

وبخصوص الموقف مع توقتاميش، فكان الاتصال بينهما قائماً اذ وصلت سفارة من برقوق لتوقتاميش سنة (788هـ/1386م)⁽⁵⁾ ومع أن من أشار إلى هذه السفارة من المؤرخين لم يذكر مضمون الرسالة التي حملها السفراء لكنها كانت على ما يبدو تتعلق باطلاع توقتاميش على الاجراءات العسكرية التي اتخذها برقوق في مواجهة تحركات تيمور ومنها تسخير إمارة القره قوينلو التابعة له في شرق الاناضول لمشاغلة تيمورلنك والحد من تحركاته⁽⁶⁾ وهذا ما حدث فعلاً عندما اضطر تيمورلنك على وقف تحركاته العسكرية في غرب ايران واقتصرها على مواجهة القره قوينلو الذين كان يقودهم أميرهم قره محمد والذي انزل خسائر جسيمة بالقوات التيمورية التي كان يقودها ميرانشاه بغاراته المفاجئة والاحتفاء في الشعب

(1) المقرئزي: السلوك، ج3، ق2، ص 552. ابن حجر: انباء الغمر، ج1، ص312-313.

العزاوي، عباس: تأريخ العراق بين احتلالين، مطبعة بغداد، ج2، ص 192.

(2) المقرئزي: السلوك، ج3، ق2، ص 542. الصيرفي: نزهة النفوس، ج1، ص 129. ابن

اياس: بدائع الزهور، ج1، ص 264.

(3) الشامي: ظفرنامه، ص 99. AL- yazdi: op. cit, vol,1, p. 264.

(4) المقرئزي: السلوك، ج3، ق2، ص 552. ابن حجر: انباء الغمر، ج1، ص312-313.

الصيرفي: نزهة النفوس، ط1، ص12. العزاوي، تأريخ العراق، ج2، ص 192.

(5) ابن حجر: أنباء الغمر، ج1، ص 301. الرمزي، تليق الأخبار، م1، ص 587.

(6) قداوي، علاء محمود: العراق في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، اطروحة

دكتوراه غير منشورة مقدمة الى عمادة كلية الاداب، جامعة الموصل 1993م، ص 64-

الجبليّة العاصية⁽¹⁾، مما اضطر تيمورلنك لقيادته كل قطعاتهكي يلاحق بنفسه قره محمد والقره قوينلو في مناطق جبال شرق الاناضول، وعلى الرغم من حملاته الخمس عليهم لم يكسر شوكتهم وتكبّدت قواته خسائر جسمية⁽²⁾. وهكذا استغل توقتاميش فرصة انشغال تيمورلنك في حربه مع القره قوينلو فاندفع بكامل قواته الى بلاد ما وراء النهر معقل تيمورلنك بعد ان أمن المداخل المؤدية الى بلاده من جهة القوقاز، وحسب ما كان مرسوم لخطة الهجوم بان استحوذ على خوارزم بسهولة بمساعدة حليفه حاكم خوارزم شاه صوفي وليندفع جيشه في محورين الاول اتجه نحو التركستان لينضم إليه جيش قمر الدين ولتتهار امامه استحكامات سنجاق فسقطت بايديهم ثم هاجموا سيرام الواقعة الى الشمال من مدينة حمكندر فانهارت مقاومة حاكمها التيموري الأمير خواجه بن أقبوغا لتتساقط بعدها مدن التركستان دون جهد كبير⁽³⁾.

أما المحور الآخر فقاده توقتاميش ليعبر نهر سيحون داخلاً بلاد ماوراء النهر وخلال ذلك وصلت الأخبار لعمر شيخ بن تيمورلنك حاكم باندجان من بلاد فرغانه فجمع عساكره وعددا اخر من امراء الوحدات فاجتمعوا جميعاً بالقرب من نهر سيحون في موضع يقال له انزار حيث دارت فيه معركة من اول النهار الى الغروب لتقع الهزيمة بجيش عمر شيخ ابن تيمورلنك واتباعه ومن نجا لاذ بالفرار، هذا في الوقت الذي كان الجيش الثاني ومعه قمر الدين قد توجه نحو بخارى وتمكن من السيطرة على أطراف المدينة ولكنه اصطدم بمناعة أسوار سمرقند التي عصيت عليه⁽⁴⁾.

أما عن تيمورلنك فانه حالما سمع غزو توقتاميش لبلادته أوكل لابنه ميرانشاه مهمة الاحتفاظ بالسيطرة على اذربيجان لينسحب هو من شرق الاناضول

(1) AL- yazdi: op. cit, vol,1, p. 280. Unknown: Modern History, BiengAconuation of the universal History, London Rublished after 1973, vol. 11, p. 100.

(2) Minorsky, V: The QaraQoyunlu and the Qutbshahs "Bulletin of the school of Oriental and African Studies, university of London" Xvilll, part,1, 1955, p. 55-56.

(3) الرمزي: تلفيق الأخبار، م1، ص 590.

(4) الرمزي: تلفيق الأخبار، م1، ص 590-591.

باتجاه اصفهان ومنها نحو بلاده تسبقه كتيبة من جيشه لإيصال خبر عودته للمحاصرين لبث روح المقاومة فيهم لحين وصوله⁽¹⁾. وخلال انسحابه من شرق الاناضول عاود القره قوينلو هجومهم على الحاميات التيمورية في ازريجان وتمكنوا بسهولة من احتلال تيريز وطرده الحامية التيمورية فيها⁽²⁾. أما توقتاميش فحال سماعه خبر قدوم تيمورلنك وجد ان المصلحة تقتضي الانسحاب نظراً للارهاق الذي أصاب جيشه من طول مدة الحصار وقلة المؤن التي بدأت تنفذ وبعد المسافة عن البلاد وعدم نجاحه في فتح بخارى أو سمرقند ليتخذها مكان ليوفر فيها الحماية لجنده، فأمر جنده بحرق قصر تيمور بضواحي سمرقند المسمى زنجير سراي ونهب اطراف المدينة ثم انسحب الى بلاده دون أن يصطدم بجيش تيمور وكان ذلك في اواخر سنة (789هـ/1387م)⁽³⁾. غير أن توقتاميش اضطر للعودة ثانية لقتال تيمورلنك املاً في استخلاص خوارزم التي كان يعتبرها ملكاً لاجداده حيث كان جنكيزخان قد منحها لجوجي وان تيمورلنك كان قد استرجعها ثانية وارتكب فيها مجازر لاسيما في مدينة خوارزم "اوركنج" حيث ساوى المدينة مع الارض وانتقم من حاكمها شاه صوفي حليف توقتاميش بقتله ومعظم سكان المدينة⁽⁴⁾. عبر توقتاميش نهر سيحون في شتاء سنة (790هـ/1388م) وكان يأمل ان تقع المعركة مع تيمور في هذا الفصل نظراً لعدم مجالدة جنده البرد وعسكر في موضع يقال له ذرلوق ومع ان تيمورلنك كان يفضل أن تكون المواجهة في الصيف حتى يسهل عليه التحرك ولتقويت الفرصة على جيش توقتاميش الاستفادة من موسم البرد المتكيف معه، فآثر مع ذلك الاسراع في التصدي لتوقتاميش مستفيداً من عامل الخبرة في احوال الحرب والارض وهكذا اخذ يبيت كمانته ويرسل كتائب الاستطلاع لجمع المعلومات وما أن وجد الفرصة

(1)الرمزي: تليفق الأخبار، م 1، ص 591-592.

(2) المقرئزي: السوك، ج3، ق2، ص585. قداوي: العراق في القرن التاسع الهجري، ص64.
Minorisky: op. cit, p. 56

(3) الشامي: ظفرنامه، ص 106-107. الرمزي: تليفق الأخبار، م 1، ص 592.
Vernadisky: op. cit, vol,111, p. 270- 201.

(4) الرمزي: تليفق الأخبار، م 1، ص 592-593. يكوبوفسكي: تيمورلنك، ص 123.

مؤاتية حتى اندفع بكامل قواته ليلتقي بعسكر توقتاميش عند موضع يقال له صاري قاميش فوقعت بينهما حرب طاحنة لم تسفر عن ظفر أحدهما بالآخر فاضطر كلاهما الى الانسحاب الى بلديهما وذلك في ربيع الاول سنة (791هـ/1389م)⁽¹⁾.

خامسا: حملة المائتي الف على بلاد توقتاميش ومعركة قندزجة

ادرك تيمورلنك أن وجود دولة توقتاميش قوية يُعد خطراً مستديماً ومصدر قلق دائم له من احتمال قيام هذه الدولة بغارات أخرى على بلاده، كما أدرك أن تحقيق أحلامه التوسعية في إقامة امبراطورية لا يمكن تحقيقه ما لم يكن مطمئناً على سلامة حدوده الشمالية مع دولة مغول القفجاق. ولذلك كان لا بد من تقويض هذه الدولة، وهذا يتطلب حشد أكبر عدد ممكن من القوات لتحقيق هذا الغرض، فبدأ يعد للقيام بحملة كبرى لغزو بلاد توقتاميش، فأستنفر المقاتلين من كافة انحاء دولته وطالبهم بالالتحاق بمعسكره، كما اتصل بالامراء المناوئين لتوقتاميش من ابناء مملكته امثال ايديكو من قبيلة قونكرات وتيمور قتلغ وكونجه اوغلان حفيد اوروس خان للتعاون معه ضد توقتاميش فاستجابوا له واتفقوا على الإنضمام اليه حال دخوله بلادهم⁽²⁾.

تحرك تيمورلنك سنة (792هـ/1390م) من سمرقند على رأس مئتي ألف جندي فأمضى الشتاء في تاشقند ومنها الى سهوب قزاقستان الحالية، وعند مدخل جبل الوغ طاغ⁽³⁾ في الموضع الذي يسمى قرساقباي امر تيمور بعمل نقش على حجر من النفريت جاء فيه "ان سلطان توارن تيمور خرج بمئتي الف مطالباً برأس توقتاميش"⁽⁴⁾ وكان الهدف من هذا النقش إشعار الجميع إن ما قام به توقتاميش

(1) الرمزي، تليفق الأخبار، م 1، ص 593-595.

(2) الرمزي، تليفق الأخبار، م 1، ص 597-599.

(3) الرمزي، تليفق الأخبار، م 1، ص 598. Vernadisky: op. cit, vol,111, p. 272.

وعن موقع جبل الوغ طاغ في قزاقستان، ينظر للخارطة قسم 2.

(4) هذا النقش الذي تم الكشف عنه في السبعينات من القرن الماضي محفوظ الان بمتحف

الارميتاج في لينينغراد. يكوبوفسكي: تيمورلنك، ص 123-124.

من التعرض لبلاده، كان لابد أن يكون ثمنه رأسه، ورأس كل من يتناول على مملكته.

وعند موضع يقال له قرا أسمان التقى وفداً أرسله توقيتاميش حاملاً هدية ورسالة تتضمن اعتراف توقيتاميش بفضل تيمور عليه، وإقراره بخطئه في الاعتداء على بلاده، ويطلب منه الصلح⁽¹⁾.

هذه الرسالة عدها تيمور ما هي الا وسيلة خداع لتثنيه عن مواصلة حملته فواصل تقدمه عبر سهوب القبجاق الباردة في ستة اسابيع، وكانت خطة توقيتاميش هي إجلاء السكان من القرى الواقعة في طريق تيمور، اما خشية عليهم أو لمنعهم من التعامل معه وتزويده بالمؤن، ومع ذلك وبمزيد من التفتيش تمكن تيمورلنك من مواصلة تقدمه فعبّر نهر توبل في (7 جمادي الاخر/12 ايار سنة 793هـ/1391م)، ثم واصل تقدمه غرباً وما أن عبر نهر اورال حتى انكشف أمامه بواسطة قوة استطلاعية معسكر توقيتاميش الذي كان قد تهيء للمقابلة عند قرية تسمى قندزجة القريبة من نهر صقمال احد روافد نهر اورال⁽²⁾.

خيّم تيمورلنك بجيشه قبالة جيش توقيتاميش وبينهما مسافة بحدود كيلومتر واحد وأخذ كل طرف يستعد للمعركة التي وقعت في (15 رجب/18 حزيران)، وتحت وطأة الهجمات المتعاقبة والتي صاحبها خسائر فادحة من الطرفين، وفي اليوم الثالث من القتال تمكن توقيتاميش من فتح ثغرة اندفع فيها بشكل غير محسوب ليجد نفسه قد توغل بعمق دون أن تسانده قوة احتياطية تحميه من الخلف وقد التفت حوله القوة الاحتياطية لتيمور، فما كان منه الا اللوذ بالفرار مع مجموعة من أمرائه تاركاً جنوده يقاتلون جند تيمور، ولتتكشف أثناء ذلك سقوط راية توقيتاميش، فما كان من جنده عند ذاك الا وأن انهارت قواهم ليقعوا فريسة لجند تيمور ومن نجا منهم لاذ بالفرار⁽³⁾.

(1) الشامي: ظفرنامه، ص 118.

(2) الشامي: ظفرنامه، ص 119.

Vernadis: op. cit, vol, 111, p. 273. Unknown: Modern History, vol, 11, p. 267.

(3) الرمزي: تلفيق الأخبار، م1، ص 618-620.

ويبدو أن تيمور الخبير بشؤون الحرب وهو من أوقع توقتاميش في مصيدة فتح الثغرة بهدف الإيقاع بخصمه انه ليس من مصلحته ان تطول المعركة الواقعة في أرض هي غير أرضه. وهكذا كتب لتيمور النصر، وكان من تداعياته على توقتاميش ان قسمت بلاده بين انصار تيمور ومنحت كاقطاعيات بما فيها العاصمة سراي التي كانت من نصيب اوغلان بولاد⁽¹⁾.

فارتكب تيمور خطأ في الانسحاب السريع من بلاد توقتاميش⁽²⁾ فكان عليه أن يمسك الارض لحين تثبيت أقدام أعوانه في السلطة، وهذا الخطأ سهل لتوقتاميش القدرة في تجميع اشلاء جيشه لينقض سريعا على سراي ويقتل اوغلان⁽³⁾، ويعيد توحيد البلاد، وأخذ يعد العدة لجولة أخرى مع تيمورلنك.

سادسا: الضربة الحاسمة ونهاية توقتاميش

يبدو أن توقتاميش لم يتعلم الدروس في علاقاته مع تيمورلنك فجميع حروبه مع تيمورلنك، كان توقتاميش هو المشعل لفتيلها، فلم يحدث أن تعرض تيمورلنك لبلاده الا رداً فعل على أفعال قام بها توقتاميش ضده، ومع ان تيمور كان لا يريد تسخين جبهة الصراع مع توقتاميش لانشغاله في جبهة الصراع مع المماليك، ولكن اضطر الدخول في المواجهة من جديد مع توقتاميش قبل ان يحسم أمره مع دولة المماليك في مصر والشام.

وهذه المواجهة جاءت بعد ان استشعر المماليك ان تيمورلنك سيهاجم الشام بعد ان انقض على المناطق الغربية من الجزيرة الفراتية المتاخمة لبلاد الشام والتابعة سياسياً للمماليك وهي الرها وماردين وذلك في جماد الاخر/796هـ- نيسان/1394م⁽⁴⁾.

(1) الرمزي: تليفيق الأخبار، م 1، ص 620.

Unknown: Modern History, vol, 11, p. 267. Vernadis: op. cit, vol, 111, p. 273.

(2) Unknown: Modern History, vol, 11, p. 267.

(3) الرمزي: تليفيق الأخبار، م 1، ص 620.

(4) ابن صصري، محمد بن محمد: الدرر المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيق وليم. م. بريني؛ بركلي، جامعة كاليفورنيا 1963م، ص 148. الشامي، ظفرنامه، ص 146.

فما كان من المماليك إلا أن طالبوا توقتاميش بالتعرض للجبهة الخلفية للقوات التيمورية في جنوبي القوقاز لغرض تشتيت القوات التيمورية بأشغالها في جبهتين أملاً في القدرة على اضعافها والانتقاض عليها. جاء ذلك من خلاف الاتفاق الذي تم بين الوفد الذي كان السلطان المملوكي يرقوق قد أرسله الى توقتاميش في سنة (796هـ/1394م)⁽¹⁾ والذي اسفر عن ارسال توقتاميش في اواخر سنة (796هـ/1394م) حملة عسكرية عبرت الدريند من جهة القوقاز. وانقضت على شيروان شمالي اذربيجان وأخذت تهدد خطوط الامداد للقوات التيمورية⁽²⁾، فما كان من تيمورلنك إلا أن استشعر الخطر المحدق به لاسيما وان القوات المملوكية هي الأخرى كانت قد زحفت نحو بلاد الشام⁽³⁾، وتلقت الدعم والإسناد من العثمانيين⁽⁴⁾ والقره قوينلو بالتحرك من اجل التصدي لتيمورلنك⁽⁵⁾.

وهكذا وجد تيمورلنك أنه لا بد من تصفية كل واحد من هؤلاء على انفراد واعتبر توقتاميش هو الأخطر لأنه الأقرب الى بلاده والأكثر تحرشاً بمناطق نفوذه في اذربيجان ومهدداً لاهدافه التوسعية في الشام والعراق وشرقي الاناضول فضلاً عن بلاد القوقاز، وكان الوقت مناسباً لتوجيه قواته نحو بلاده لحلول فصل الصيف الذي يساعده على تجنب الثلوج والبرد الذي في العادة غالباً ما يكون قاسياً في فصل الشتاء، كما ان قرب تواجد قواته من بلاد توقتاميش وامكانية الوصول إليها من دون عبور الصحاري والقفار التي عبرها في حملته السابقة والتي كلفت قواته الكثير من الجهد. وهكذا اندفع تيمور بمعظم قواته عن طريق اذربيجان ليدخل بلاد

AL- yazdi: op. cit, vol,1, p. 462- 463.

(1) ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم: تأريخ ابن الفرات: تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، المطبعة الامريكانية، بيروت، ج9، ق2، ص 416. الصيرفي: نزهة النفوس، ج1، ص 414.

(2) حافظ ابرو: زبدة التواريخ، ص 118. AL- yazdi: op. cit, vol,1, p. 486.

(3) ابن صصري: الدرّة المضيئة، ص 160.

(4) ابن الفرت: تأريخ ابن الفرات، ج9، ق2، ص 382.

(5) قداوي: العراق في القرن التاسع الهجري، ص 73- 74، 174.

توقتاميش، بعد أن انسحب توقتاميش من شيروان وعند نهر ترك⁽¹⁾ دارت هناك رعى معركة طاحنة في (13 جمادي الاخرة/16 نيسان سنة 797هـ/1395م) ومع أن توقتاميش وجنده انزلوا خسائر جسيمة بالقوات التيمورية التي لم يسبق لها ان تلقته من قبل وكادت ان تعصف بتيمورلنك نفسه ولكن صبره وقدرته على تحمل الخسائر وبسالة امرائه وجنده واصرارهم على الثبات وقتالهم البطولي كان وراء زعزعت معنويات توقتاميش الذي رأى ان ما تحملته قواته من خسائر تجعله غير قادر على الاستمرار في القتال، فأثر الانسحاب فكان ذلك بمثابة مقتل لقواته التي انقضت عليها القوات التيمورية فما كان منه الا الفرار فتابعت القوات التيمورية في اثره حتى ضفاف نهر كورا احد روافد نهر ترك لتستولي على معسكره، في حين التجأ توقتاميش ومن نجا من اتباعه الى غابات البلغار على ضفاف نهر كاما احد روافد نهر الفولغا⁽²⁾. لم يكتف تيمورلنك بهذا النصر وانما اراد تحطيم دولة توقتاميش كي لا ينهض من جديد فاندفع بقواته نحو حوض الفولغا صوب العاصمة سراي التي سقطت بعد مقاومة ضعيفة فأمر باحراقها بعد ان نهبها وسبى سكانها لتواجه باقي المدن الرئيسية الاخرى المصير ذاته كمدينة تانا وكافكا الاقتصادية وحاجي طرخان وأزاق "ازوف" وكان الهدف هو تقويض الحياة الاقتصادية لهذه الدولة التي لم تنتعش احوالها بعد هذه الحملة⁽³⁾ على الرغم من انسحاب تيمورلنك من هذه البلاد بعودته الى عاصمة بلاده سمرقند في العام نفسه⁽⁴⁾.

اما عن مصير توقتاميش فانه على الرغم من استعادته السيطرة على العاصمة المحروقة سراي فان الاوضاع لم تستقم له فيها لظهور منافس قوى تمثل

(1) نهر ترك: ينبع من جبال القوقاز ويجري الى الشرق وراء الدريند (باب الأبواب) ويصب في بحر قزوين قرب بلدة قزلار. يوسف، عزت باشا: تأريخ القوقاز، ترجمة خوسنونه عبد

الحميد، مطبعة عيسى الباي الحلبي، اسطنبول 1933م، ص 12.

(2) Vernadis: op. cit, vol, 111, p. 274- 277.

وللاطلاع على تفاصيل اكثر ينظر ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص 101- 111. الرمزي: تليفق الأخبار، م 1، ص 612-626.

(3) ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص 111. يكوبوفسكي: تيمورلنك، ص 124.

(4) ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص 111.

خانية مغول القفجاق على عهد توقتاميش (780-808 هـ/1378-1406م)

د.رغد عبد الكريم أحمد النجار

بتيمور قتلغ الذي استحوذ على معظم الاجزاء الجنوبية الغربية من البلاد ليقود منها قواته ويهاجم العاصمة سراي ويستولي عليها، لكنه لم يظفر بتوقتاميش الذي تمكن واسرته من الهروب منها ليظل مطارداً حتى قضى نحبه في سنة (808هـ/1406م) في تومين احدى مدن سيبريا⁽¹⁾. وبوفاته تكون دولة مغول القفجاق قد طوت اخر صفحة من صفحات اخر الخانات الكبار الذين حكموها لتتنقسم البلاد بعده الى عدة خانيات وليدب الضعف والانحلال فيها على الرغم من استمرار بقائها زمناً طويلاً.

(1) الرمزي: تلفيق الأخبار، م1، ص 629-634.



***The Qufgaq Mongol Khandom During
Tuktamish Reign
(780-808AH/1378-1406AD)***

Dr.Raghad Abdul Kareem Ahmed AL-Najjar

Abstract

The present study tackles the status of the Qufgaq Mongol Khandon state during Tuqtamish Reign it Elaborates on the state of division that afflicted the state twenty years before Tuqtamish assumed Power, the way this Khan came the throne unified the state and built up army to wage wars against his compete tors. This policy brought up his state many campaign the last of which was the destructive campaigns waged by Tamerlank in (797AH/1394AD)This campaigns but an end to this Khan's Power, completely destroyed his state and Disrupted it in to small state eventually fall under the control of modern Russia.